إسلاميات
كاتب
مسيحي

1

أكثر من مقدمة
الكاتب - والإسلاميات -
وأشياء أخرى

obeikandl.com

obeikandl.com

(١)

وكأنها كانت مؤامرة اشترك فيها المسلمون والأقباط على السواء.

الدكتور نظمى لوقا أستاذ الفلسفة الذى أنصف الإسلام فى كتاباته،فقررت الكنيسة أن تحرمه وتطرده من رحمها و رحمتها،ولما مات لم تصل عليه،وعندما عرف المسلمون أنه كتب ما كتبه عن الإسلام ليس لأنه أسلم،ولكن لأنه يحب الحقيقة ليس إلا قاطعوه،وتحالف عليه القوم حتى أنسوا الناس ذكره فأصبح نسيا منسيا.

رغم كتابات نظمى لوقا الكثيرة،إلا أن كتابه محمد الرسالة والرسول يظل هو الأهم والأشهر؛لأنه الكتاب الذى كان فاتحة الصدام بينه وبين الكنيسة،وهو الصدام الذى وصل ذروته فى العام ١٩٨٧ عندما مات نظمى،فقد تهرب كاهن الكنيسة من الصلاة عليه،ورفض صغار العاملين فيها إدخال تابوته إليها،ولما سأل من رافقوه لأداء واجب وداعه:هل صدر فى حقه حرمان كنسى دون أن يعلم؟أم أن تصرف الكنيسة والقائمين عليها مجرد تصرف شخصى؟ورغم أن السؤال كان واضحا،إلا أنه بقى دون إجابة حتى الآن.

كان هناك سؤال آخر مهم،فهل سيدفن نظمى فى مقابر الأقباط؟أم يذهبون به إلى مقابر المسلمين نزولا على شائعة أنه أسلم سرا،لكن ولأنه ظل حتى اللحظات الأخيرة من حياته يعلن أنه مسيحى ومعتز بمسيحيته ولم يتخل عنها مطلقا،فقد دفن فى مقابر الأقباط،لكن دون صلاة الموتى.

قضى نظمى لوقا أكثر من عشر سنوات (١٩٤٨ – ١٩٥٩) عاكفا على فكرة كتابه «محمد الرسالة والرسول»،وكان هدفه كما قال هو أن يوحد أبناء أمته من المسلمين والمسيحيين،لكن المفاجأة أن الكتاب عندما صدر زاد فى هذه الفرقة إلى حد كبير.

كانت أولى واجباته كما قال: أن يبصر المعجبين به بحقيقة مقصده ودوافعه من تأليف هذا الكتاب،فهو لم يكن داعية للإسلام بما كتبه عنه،بل كان مسيحيا ينفذ ما تمليه عليه مبادئ الأخلاق المسيحية وبمنظور عقل إنسانى حضارى،ولما كان ما كتبه قد أنصف الإسلام،فإنه لم يتخلَّ أبدا عن مسيحيته،بل كتب عن النبى محمد من منطلق الإخلاص لمبادئه المسيحية والتمسك بجوهرها وأخلاقياتها.

عندما خرج الكتاب إلى الأسواق فى العام ١٩٥٩،كان رد الفعل عنيفا ومدويا،لم يفاجأ بالغضب والمقت وإن أحزنه ذلك غاية الحزن،لم ينزعج ضميره وإن كان وجدانه انزعج غاية الانزعاج،كانت راحة ضميره الفكرى والخلقى والإنسانى والوطنى عونا له على التجلد للمحنة العاطفية والاجتماعية التى بلغت مداها حتى تقطعت على نصالها صلات الرحم،وبلغ الإيذاء أهل بيته المقربين،ممن لا ذنب لهم ومنهم صبية لا إدارك لهم لمعنى ما حدث.

كان نظمى لوقا يتوقع ما حدث بالضبط،ولذلك لم يكن رد الفعل مفاجئا له على الإطلاق،لم يرهق عقله أو ضميره،ولكن نوعا آخر من رد الفعل فاجأه من حيث لا يحتسب،وكان هذا أفدح من رد الفعل المتوقع لأنه ألقى على عقله وضميره عبءًا لا يطاق من الضيق والحرج والتأذى،فصار ذلك محنته الحقيقية.

فؤجئ نظمى أن كثيرا من المسلمين يعلنون عليه الحرب – على أساس مختلف تماما عما فى ذهنه ونفسه – فقد غلب على الأكثرين منطق التمنى وذاتية التفكير،فتبادر إلى نفوسهم أنه فضل دينهم على دينه فتخلى عنه،تماما كما تبادر إلى نفوس من أعلنوا عليه الحرب أنه تخلى عن دينه،ما دام تصدى لإنصاف الديانة الأخرى.

انطلق الهجوم على نظمى من عين الأسلوب الذى يعلى من شأن ذاتية التفكير،وهى ذاتية تملى على أصحابها:أنه إذا صادقت الآخر فأنت عدوى،وإن

صادقتنى فأنت عدو الآخر،ولو كان هذا هو الواقع لما كان فيه ضرر،فألوف من الناس يعتنقون كل يوم ديانة غير ديانتهم الأصلية.

لكن ما حدث كان منافيا للواقع لأنه لم يكتب من منظور دينى أو إيمانى،بل من منظور موضوعى إنسانى تماما،فكتابه كان «تنوير معرفى وخلقى»،وليس كتاب دينى،ومن ثم صار السكوت على هذا الحرب من المسلمين غير القائم على أساس من الواقع أمرا لا يمكن تفسيره إلا بالنفعية أو الاستفادة من وهم نفسى أو عقلى وقع فيه من استقبلوا الكتاب.

كان نظمى لوقا واضحا فى هدفه،فهو ينصف الإسلام بشكل عملى،فقد أهدى كتابه :«إلى روح المهاتما غاندى،الذى كان يصلى بصفحات من براهما،وآيات من التوراة والإنجيل والقرآن،ومات بيد متعصب من أبناء ديانته،شهيد دفاعه الصادق المجيد عن حرية العبادة لأتباع محمد».

قصد نظمى لوقا من هذا الإهداء أن يقول لمن يقرأ الكتاب:«لتكن ديانتك ما تكون، فهذا شأنك وحدك،ولكنى أدعوك ألا تتخذ منها ذريعة للتعصب ضد الديانات الأخرى،بل اجعل من جميع أتباعها إخوة لك،واجعل من تلك الديانات أخوات لديانتك فى التوجه إلى الله،فى تنزه عن الأنانية والتعصب،وفى حب شامل للبشرية كافة.

وكما كانت الفكرة مزعجة كان الإهداء مزعجا أيضا،يقول نظمى لوقا فى استعراضه لردود الفعل على الكتاب:« دكتور فلسفة له بعض الشهرة،كنت أأنس فى أحاديثه الاعتدال والمعقولية،التقى بى فى مكان ما،ولما عرفوه من أنا قال: إنه لا يأخذ على كتابى إلا ما أسماه مجافاة اللياقة (وتأدبا منه لم يقل الجليطة)،لأنى أهديت كتابى عن رسول الإسلام إلى رجل لا يدين بديانة سماوية،وهو غاندى،وزوى

الرجل فمه وقد زم شفتيه فى امتعاض».

أما الموقف الذى كان شديدا على نفس نظمى لوقا،فكان ما قاله هو:«طرق بابى بعد ظهور كتابى «محمد الرسالة والرسول» رجل أبيض البشرة مشرب بحمرة فى ملابس أوروبية،وما أن تأكد أنى فلان حتى عانقنى،فقلت فى نفسى: «اللهم اجعله خيراً»،وجلس على طرف المقعد فى تأدب واضح،وراح يثنى على كتابى،ثم قال:أنا أعمل بالسعودية وأسكن مكة المكرمة،وقد جئت أدعوك وأسرتك لزيارة مكة والعمرة أو الحج إن تأخرت إلى موسم الحج،فسألته بهدوء شديد، يسرنى أن أزور مكة،ولكن أيسمح بهذا للمسيحيين؟، فغاضت الحمرة الطبيعية من وجه الرجل،وفغر فاه،وأخيرا عثر على لسانه فقال: كمن لا يصدق ما سمع:أو لم تسلم؟فقلت له:لا ...وماذا دعاك إلى هذا الظن؟،فانتفض الرجل قائما يبتدر باب المسكن وأنا أتبعه،ولم ينس وهو فى فتحة الباب أن يلتفت إلى فى مقت شديد وإزدراء واضح،ثم بصق على الأرض،وانطلق يهبط السلم كمن ينجو بنفسه من وباء،ووقفت أنظر فى أعقابه،وأنا أحمد الله أن أمثاله ليسوا كثيرين جدا».

ليس هذا فقط،بل كان هناك موقف آخر،يقول عنه نظمى بنفسه:«بعد ذلك بأيام التقيت برجل مثقف،كنت أعرفه منذ سنين مولعا بالإلحاد،مغرقا فى تطرفه العلمانى،ويجاهر بعدائه للعقائد الدينية كافة،ويعدها - بلا استثناء – تخلفا فكريا وحضاريا،فإذا به ممتعض مستاء؛لأننى خيبت أمله وابتدرنى قائلا:أمثلك يا فلان يخون موضوعية النظرة العلمية؟فقلت له:بل أنا داعية إلى موضوعية التفكير،فرد على:وما العلاقة بين موضوعية التفكير والاعتقاد الدينى،أليسا نقيضين؟،فقلت :إنهما مجالان مختلفان ولكنهما ليس متناقضين،فقال:فكيف كان ذلك؟»

استجمع نظمى لوقا نفسه مستعينا بصبره قائلا:«قد يجتمع التفكير الموضوعى –

الذى هو لباب العدل – والإيمان الدينى،وقد يفترقان،فيكون الإنسان مؤمنا بدين وموضوعيا فى رؤيته لكل شئ،وعادلا فى أحكامه يكيل جميع الأمور بمكيال واحد،وقد يكون مؤمنا وغير موضوعى،أى متعصبا غير عادل،ولا يكيل جميع الأمور بمكيال واحد،فيتحول إيمانه إلى هوى عقلى جامح وإلى جور وعدوان،وينبغى أن تعلم أن الأديان الكبرى تدعو للعدل والإنصاف مهما اختلفت الديانات،﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ هكذا يقول القرآن، «وأحبوا أعدائكم »هكذا يقول الإنجيل،وقد لا يكون هذا ولا ذاك،كما أرجو ألا تكون أنت،فأنا لا ألزم الملحد الذى ينكر وجود الله أن ينصف الأديان،ولكنى أطالب من يؤمن بوجود الله أن يزن العقائد الأخرى وشرائعها بميزان موضوعى،ويستحسن منها ما يستحسنه من عقيدته بغير تحيف ولا جور ولا تعسف».

رد عليه صاحبه قائلا:«ظننتك تدعو أمثالى إلى التدين»،فرد نظمى:هذا هدف حسن ولكنه ليس هدفى،فأنا داعية إلى موضوعية التفكير والعدل،بحيث لا يتحامل مؤمن بدين على ديانة سواه،أما من ينكر الأديان فقد ارتفع عنه هذا التكليف؛لأنه يساوى بينهما فى الرفض،فلا إكراه فى الدين،أما العدل فواجب خلقى ومنطقى معا على كل عاقل».

لكل هذا العنف فى رد الفعل،حاول نظمى لوقا أن ينشر فى الصحف توضيحا لموقفه،فهو لم ينصف رسول الإسلام لأنه أسلم؛ ولكن لأنه رآى أنه يستحق الإنصاف،لكن النظام الناصرى فرض على الصحف حظرا شديدا أن تنشر شئيا عن كتب نظمى حتى ولا فى الإعلانات المدفوعة.

كان الحل الوحيد أن يستمر نظمى لوقا فى إصدار كتبه التى تدافع عن الإسلام

وتنصفه،أصدر كتب« محمد فى حياته الخاصة»،و«أبو بكر حوارى محمد»،و«عمرو بن العاص» و«عمر بن الخطاب ..البطل والمثل والرجل»،وفى كل مرة يصدر له كتاب جديد،كان يزداد سوء الفهم،للدرجة التى اضطر فيها أن يصدر وبعد ربع قرن من كتابه الأول «محمد الرسالة والرسول» كتابه المهم جدا «أنا والإسلام».

أصدر نظمى لوقا هذا الكتاب كى يصحح تفكير الناس عن طريق تصحيح تصورهم لنوع موقفه الفكرى البحت من الإسلام وعلاقته به وسدا لمنافذ العبس والإبهام فى هذا الشأن.

ويصف نظمى ما أقدم عليه:«وسيكون مدخلى إلى هذا تحليل أسباب فشلى الذريع منذ ربع قرن،وردود الفعل التى صاحبته وكيف كانت أعراضا تشير على تباينها وتناقض مظهرها إلى داء واحد،وبذلك لا تكون ردود الفعل والمحنة أحداثا شخصية عارضة،بل ظاهرة نكشف عن أسبابها الكلية،والعلم موضوعه ما هو كلى متوار خلف الجزئيات والأعراض التى ترشدنا إليه،وهذا هو الموقف الجدير بكل ذى فكر،وهذا سيكون مدخلنا إلى المعرفة الموضوعية بالإسلام،معرفة أتمنى ألا يغالطها وهم وألا تغرر بأحد».

إننى أمام مشروع متكامل لكاتب مسيحى يضم ستة كتب عن الإسلام،وهى جديرة بالرصد والتأمل والمناقشة،ليس من أجل إنصاف نظمى لوقا الذى ظلم ظلما شديدا،ولكن لوجه الحقيقة التى يريد الجميع أن يخفونها بعيدا عن الأبصار،إنها محاولة محفوفة بالمخاطر،لكنها تستحق،وها نحن نبدأ معكم من جديد.

(٢)

قد تتحير من سلوك الدكتور نظمى لوقا،الذى قرر أن ينصف الإسلام،ليس من أرضية الاقتناع ولكن من مساحة الموضوعية،التى تعز على كثير من الباحثين

والمفكرين.

لكن عندما تعرف جذور الرجل الفكرية والنفسية،لن تتعجب،فما جرى عليه فى طفولته وشبابه،كان لابد أن يقوده إلى أن يكون منصفا للإسلام.

فى كتابه«أنا والإسلام»...حكى نظمى لوقا القصة كاملة.

لقد جاء كأول أبناء زواج من أب شاب متوسط التعليم،ولكن طموحه الدنيوى كان فوق المتوسط بكثير،وأم كانت أقرب إلى الطفولة،غريرة – كما يصفها – فى الثالثة عشرة من عمرها،لم يتح لها إلا بعض التعليم الابتدائى،مع تربية مستنيرة،فى بيئة كانت الأفكار الخرافية تشكل فيها معظم تصورات الإناث.

لم يكن غريبا أن تمرض الطفلة التى لم يكتمل نموها البدنى بحمى النفاس عقب ولادتها لنظمى،ولم يتح لها إرضاعه،ولولا عطف بنات الحلال من الجارات وذوات القربى ممن يرضعن لما كتبت الحياة للطفل.

ويذكر نظمى أن قريبته العجوز التى كانت ترعاه تطوف به فى يومي سوق مدينته – دمنهور – ،وهما يوم الاثنين ويوم الجمعة لترضعه ذوات الأطفال من الفلاحات الغريبات على سبيل الإحسان.

لكن الأم التى حرمت نظمى من حنان صدرها رغما عنها،أرادت أن تملأ رأسه بتصوراتها الطفولية عن الناس وعن الدنيا،كانت أمه هى رفيقته،فقد كان طفلا معتل الصحة،بنيته شديدة الضعف،ولذلك أحاطه والده بسور يعزله عن مخالطة أقرانه وأنداده،وأصبحت أمه هى مصدره الوحيد لكل تصور عن الناس وما بينهم من علاقات.

كان والده كما يصوره رجلا داجنا،ما أن يعود إلى بيته حتى يلزمه إلى الصباح،يجالسه هو وأمه ويطالع لهما فى كتب كان يقتنيها،وكان أهمها كتابان هما

«كليلة ودمنة» و«ألف ليلة وليلة»،ثم بعض الروايات المعربة التى تدور حول المغامرات والفروسية،ثم يحدثها بعد ذلك عما يتحدث عنه الناس من أخبار الحركة الوطنية المصرية.

كانت عائلة نظمى فى الغالب غير مستقرة يصف هو ذلك قائلا:«كان جدى لأمى متوفيا،وشبت أمى يتيمة من نوع عرفت فيما بعد أنه كثير الحدوث فى المجتمع المصرى،ولكن ليس بين أمثالنا من المسيحيين،فقد كان أبواها مطلقين وذلك كما أوحى إلى فى ذلك المناخ،سقطة أو وصمة،وتزوجت جدتى لأمى من رجل كان موضع كراهية من أسرتى،لا لشئ إلا لأنه تزوجها».

اكتشف نظمى حينما كبر أن هذا الرجل كانت العائلة قد افترت عليه،يقول:«كان رجلا ممتاز الثقافة،أوقعته ظروف الزواج يؤمئذ فتزوج هذه المرأة الواسعة الثراء المعتدة بثرائها، والمعتدة على الأخص بأميتها الفكرية».

إنه لا يتردد أن يقول رأيه فى أقرب الناس إليه طالما أنه يقول الحق،ثم أنه لم يستسلم لما يقوله الآخرون،فيعترف به،بل له رأيه الخاص الذى يكونه بعد أن يكون عرف وبحث وناقش،وقد يكون هذا هو المنبع الذى قاده فى النهاية إلى مصب إنصاف نبى لا يدين بدينه وهو الرسول محمد صلى الله عليه وسلم.

أما جده لأمه فيقول عنه:«كان والدى بموافقة أمى الناقمة على أبيها قد حرم عليه دخول البيت؛ لأنه كما كانا يكرران أمامى دائما هو سبب البلاء،فهو شديد الولوع بالنساء والشراب،خليع ماجن لا يشعر بالمسئولية عن شئ ولا يبالى الملام،كان فضيحة تدب على قدمين».

كانت هذه الحكاية عاملا مؤثرا فى تنشئة نظمى لوقا،هو نفسه يقول عن ذلك:«وهكذا أضيف عنصر جديد هو صرامة المقاييس الخلقية،والنقمة والازدراء

لكل إنحراف عن سواء السبيل أو العجز عن التحكم فى الرغبات والشهوات التى هى من وسوسة الشيطان».

ورغم هذا الزلل النفسى الذى اعترى العائلة،إلا أن حياة نظمى النفسية خلت من الأزمات وألوان الصراع الداخلى،وخلت من الاحتكاك بالعالم الخارجى الذى صوروه له حافلا بالشر والسوء،فهو لا يعرف أو لا يسمع عن أحد إلا نمطين متقابلين تماما،الأول هو الزعيم سعد زغلول،الذى كانت صورته هى الصورة العائلية الوحيدة فى البيت،ويقابله النمط الآخر المزدرى رغم قرابته الحميمة وهو جده لأمه،وفيما عدا هذا لم تكن له علاقات مباشرة مع أحد.

لكن حدث فى حياة نظمى لوقا ما يشبه الانقلاب،فقبل أن يبلغ الرابعة من عمره رزقت الأم بطفل آخر،ففكر الأبوان فى إرسال نظمى إلى المدرسة،ولما لم تكن هناك رياض أطفال،بل مدرسة أولية هى «العريان»،فقد ذهب الطفل الضعيف البنية،المتضخم الرأس حجما ومضمونا إلى تلك المدرسة، فإذا به يجد أولادًا فى ضعف عمره أو أكبر فى جلاليب،وبعضهم يلبس قبقابا،وبيد كل منهم مخلاة من القماش بها اللوح وقلم الإردواز وعلى رأسه طاقية،وليس للمدرسة فناء،فهم يتجمعون فى الشارع الضيق المبلط بأحجار مستطيلة صغيرة سوداء،حول عربات الحلوى الرخيصة وغزل البنات والدندرومة.

كان هذا هو أول لقاء بين نظمى وأبناء جيله فى ساحة العالم خارج بيته،صدمته حقارة مظهرهم وصدمتهم قامته الصغيرة وأناقة بدلته وحقيبته وطربوشه وهبوطه من العربة الحنطور فى صحبة حسين خادم الأسرة،وصدمته أيضا ألفاظ غريبة يتراشقون بها ثم يتعاركون أو يتضاحكون، ولم يفخم نظمى تلك الألفاظ، ولكنه أحس من ردود الفعل أنها صفات غير كريمة ترمى بها الأمهات خاصة.

دخل نظمى المدرسة وهو يجيد قراءة الصحف والكتب،وكانت صدمة عندما وجد أن المدرسة لا تزال تتعثر فى تعليم طلابها أبجديات القراءة،ولما عرفوا حقيقة مستواه،نقلته المدرسة إلى فصل أعلى،لكن الصدمة الأكبر كانت تنتظره هناك،فقد أخذ منه الطالب الذى يجلس بجواره قلمه الإردوازى،فصرخ فيه:هات قلمى،وإذا بالشيخ الذى كان يواصل الكتابة على السبورة يقول:من ابن الكلب الذى تكلم بغير إذن.

كان هذا السباب وحده صدمة أخرى،ووجد نظمى - وهو الطفل الصغير- نفسه يقول للشيخ:أجئنا إلى المدرسة لنتعلم الأدب أم قلة الأدب؟،احتقن وجه الشيخ، وتناول يد نظمى بقسوة وراح يلويها،فانقض الطفل على يد الشيخ وأنشب فيها أسنانه،ثم جرى يهبط على السلم،تاركا الفصل وراءه يموج الهرج والمرج.

العقاب الحقيقى كان عند ناظر المدرسة،الذى قال لنظمى:جزاء الكلام فى الفصل بغير إذن حاضر فى الحجرة المقابلة..تعال معى،وجره جرا إلى حجرة كان فى أرضها غطاء حجرى لبئر،وفيه حلقة حديدية – عرف نظمى فيما بعد أن تلك البئر مخصصة للصرف الصحى بالمضخات كما هو الحال فى بيوت معظم المدن فى ذلك الحين.

أما البئر قال له الناظر:«هنا يعيش التمساح الذى نلقى إليه بالأولاد الذين يتكلمون فى الفصل..وسأعفو عنك هذه المرة لأنك كنت لا تدرى هذه الأصول».

عاد نظمى إلى بيته،كتم عن والديه ما جرى له،لكنه لم ينم طوال ليلته مشغول الخيال بالتمساح.

لكن حالة الخوف هذه،وتهكم أقرانه فى المدرسة عليه لأنه كان الأكثر منهم موهبة وتفوقا لم تجعله يتراجع،ففى المدرسة كان نظمى ظاهرة لفتت أنظار أساتذته

بسبقه سنه فى أنماط السلوك والتفكير والمعرفة،حتى كان وهو فى السنة الأولى أو الثانية يستدعى إلى فصل السنة الرابعة ليصحح ابن السابعة لذوى الشوارب من تلاميذها الموقرين معلوماتهم،على سبيل التبكيت لهم،فيكون جزاءه أن ينتظروه عند انصراف المدرسة ليكبسوا له طربوشه ويصفعوه على صدغيه وعلى قفاه ويمزقوا له ملابسه.

مثل هذا الموقف الذى تكرر كثيرا،كان سببا فى أن ينسحب نظمى إلى الإنطواء داخل نفسه والعزوف عن مخالطة الناس أو مجاراة أنماطهم السلوكية والفكرية.

فى هذه العزلة وجد نظمى لوقا ضالته فى الشيخ البخارى،شيخ المسجد الكبير،والذى كان فى الوقت نفسه تلميذا للإمام محمد عبده،يقول عنه نظمى:«كان قدوة لى فى منهج التعويض عن ضعف البنية،فهو قصير القامة كفيف البصر،لكنه كان كبيرا بالتطلعات الذهنية والخلقية وسمو المبادئ الفكرية والروحية المسرفة فى نزاهتها».

تخرج نظمى لوقا على يد الشيخ البخارى وهو فى العاشرة من عمره،فقد ظل يتردد عليه ليحفظ القرآن منذ كان عمره ست سنوات،كان المسلمون والمسيحيون يتعجبون من هذا الطفل المسيحى الذى يدخل المسجد ليحفظ آيات القرأن،يحمل لشيخه نعله حتى يضعه فى قدميه،ثم يسير به حيث أراد.

لم يكن الشيخ البخارى فظا غليظ القلب،ولذا آنس إليه نظمى،وجد كيف استغنى عن أجره عندما مرت عائلة الطفل بأزمة مالية،بل عرض أن يذهب إلى الطفل فى بيته،حتى لا يشعره بالحرج،فى الحين الذى رفضت جدة نظمى أن تمنح إبنتها أى مساعدة رغم أنها تعرف جيدا أنها تمر بضائقة مالية.

كان الشيخ البخارى نموذجا للبطولة من وجهة نظر نظمى،كان يضم فى جنبيه

كل العظام فى التاريخ، يقول نظمى: لم أكن من الغباء النفسى بحيث أطلب أن يكون كل الناس،وكل الأبطال،صورة منى ومن نقصى البدنى وعقدتى التى تفزعنى من استخدام القوة ولو لنصرة الحق وخير البشرية إن اقتضى الأمر ذلك،بل كنت أعرف مواطن نقصى أو عجزى،وأكبر خلو أبطالى الإنسانيين الأخلاقيين منها».

هذه القاعدة أكبر نظمى لوقا واشنطن الذى حارب ليستقل قومه،وأكبر أكثر منه إبراهام لينكولن الذى لم يتوان عن محاربة طائفة من قومه ليحرر العبيد،وعشق غاندى لأنه بسموه الروحى حارب تعصب بنى دينه مثلما حارب بالعصيان المدنى وعدم العنف مستعمريه من الإنجليز،عشقه حتى أنه كان يصوم كلما أعلن الصيام،وعشق المسيح وتعاليمه المثالية،وعشق أيضا نبى ديانة أخرى غير ديانته،هدى قومه عبدة الأصنام إلى عبادة الله الواحد،وقاوم كل محاولة لرفع قدره فوق مستوى بشريته،وامتشق السيف ليقيم دولة مؤمنة بالله على أنقاض فوضى قبائل كافرة لا أخلاق لها.

هل بدأت من هنا الرغبة لدى نظمى لوقا ليكتب عن الإسلام،وعن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم؟أغلب الظن أن هذه كانت نقطة الإنطلاق لديه،فقد تماس لديه الحب لمحمد مع فلسفته الموضوعية (وهو المنهج الذى توصل إليه مبكرا) يقول:وجدت الكتابة عن نبى الإسلام بيانا عمليا أو منفستو لموضوعية الفهم والمعرفة والتقدير لمحسن إلى البشرية،وهادى مئات الملايين إلى التوحيد ومحاسن الأخلاق ومكارمها وميزان العدالة فى التعامل بين الناس.

إنه يضع أمامنا قيمة ما فعله، يقول:« مثلما كتبت أبصر الناس بسمات الإسلام وسجايا محمد الموضوعية،فى كتابين هما «محمد الرسالة والرسول» الذى أساءت

الكثرة من أبناء الديانتين فهم مراميه،و«محمد فى حياته الخاصة»،كتبت عن أبى بكر وعن عمر فى موضوعية من يرى فى كل بارقة خير وقدوة وسمو،منارة تصلح أن يستضئ بها البشر الموضوعيون كافة،أيا كانت عقائدهم،كذلك كتبت «على مائدة المسيح» بنفس الموضوعية المحايدة التى ينبغى أن ينظر بها إليه كل إنسان أيا كانت عقيدته،أى أننى شرعت فى هذه الموضوعية وفرضتها طريقا لنفسى قبل غيرى،فيما يتصل بعقيدتى وما يخالفها على السواء».

الصورة الآن واضحة من زاويتين...

الأولى هى ماذا كتب نظمى لوقا عن الإسلام؟

والثانية هى لماذا كتب عن الإسلام؟

وستظل زاوية ثالثة وهى كيف كان رد الفعل.

(٣)

بعد أن صدر كتاب نظمى لوقا «محمد الرسالة والرسول» بأيام قليلة تعرض ابنه لطعنة مطواة وهو فى طريقه إلى المدرسة،لم يكن هناك أى تفسير مقنع أو حتى غير مقنع،إلا أن صاحب الطعنة أحد المتعصبين،فعل ذلك انتقاما لما أقدم عليه والده من الكتابة عن الإسلام ونبيه ببعض الموضوعية،لكن أحدا لم يصل إلى حقيقة ما جرى.

رد الفعل الأهم كان القرار الذى أخذته وزارة التربية والتعليم بالجمهورية العربية المتحدة،حيث قررت الكتاب على مدارسها فى العام الدارسى ١٩٦١،وتظل النسخة التى كان يتداولها الطلبة فى المدارس هى الباقية والشاهدة والحافظة لهذا الكتاب المهم.

(بيانات هذه الطبعة من الكتاب نصا هى:الموسوعة الإسلامية الكبرى...محمد الرسالة والرسول..تأليف الدكتور نظمى لوقا...مقدمة بقلم السيد كمال الدين

حسين وزير التربية والتعليم بالجمهورية العربية المتحدة...ملتزم الطبع والنشر دار الكتب الحديثة لصاحبها توفيق عفيفى عامر..شارع الجمهورية بالقاهرة...وتنويه فى أسفل الغلاف :قررت وزارة التربية والتعليم تدريس هذا الكتاب بمدارسها بإقليمى الجمهورية)

لا توجد لدى معلومات عن ظروف تقرير الكتاب على المدارس،خاصة أن هذه واقعة خطيرة جدا،فالكتاب لم يعجب المسيحيون،لكن الكاتب والناشط القبطى مجدى خليل يرى أنه كان ضمن مجلس قيادة الثورة شخصيات متأسلمة ومتعصبة فى آن واحد،مثل حسين الشافعى وكمال الدين حسين الذى كان وقتها وزيراً للتربية والتعليم،فقرر الكتاب على المدارس اعتقادًا منه،أن فيه نصرة قوية للإسلام.

ما فعله كمال الدين حسين كان مستفزا للبابا شنودة،(كان وقتها أسقفا للتعليم فى عهد البابا كيرلس السادس)،ووقع صدام بالفعل بين الأنبا شنودة والدكتور كمال رمزى استينو نائب رئيس الوزراء وقتها،بسبب فرض الكتاب على تلاميذ المدارس،لكن يبدو أن نفوذ استينو فى مجلس الوزراء لم يكن بالقوة التى تمكنه من منع تقرير الكتاب.

لكن يبدو أن البابا شنودة الرجل الذى لم يتعود الهزيمة أصرها فى نفسه،وظل مترقبا لنظمى بالمرصاد،فعندما مات فى ٢١ يونيو ١٩٨٧ كان البابا شنودة متوجا على عرش الكنيسة ملكا لا يرد أحد له كلمة،وكان طبيعيا أن يمنع الصلاة على نظمى،وقد طافت به زوجته الكاتبة والأديبة صوفى عبد الله بعدد كبير من الكنائس تطلب الصلاة عليه،لكن دون أن يستجيب له أحد ..أى أحد.

شئ مما قاله مجدى خليل يمكن أن يكون صحيحا،فعندما صدر الكتاب فى نهاية العام ١٩٥٩ (الكتاب صدر بالمناسبة لأول مرة فى شهر رمضان،ورغم أن الموعد

كان مصادفة إلا أن هناك من اعتبره تأكيدا على حرص الكاتب على إنصاف الإسلام والرسول)،وخرجت ردود الفعل السلبية،وأراد نظمى لوقا أن ينشر إعلانا يوضح فيه موقفه،منع تماما من ذلك،فلا إعلان مدفوع ولا أى خبر عن نظمى لوقا أو أى من كتبه.

لكن فجأة تغيرت الأوضاع تماما،وأصبح الكتاب المغضوب عليه،ملء السمع والبصر،وبدلا من أن ينشر إعلان عنه أصبح يوزع على طلاب المدارس وهم بالآلآف،هذا غير المكافأة الكبيرة التى حصل عليها نظمى مقابل تقرير كتابه على نطاق واسع فى كل أقاليم الجمهورية العربية المتحدة.

تغيير الأوضاع لم يكن صدفة ولكنه كان أمرا معدا له،ولولا وجود كمال الدين حسين أحد الضباط الأحرار على رأس وزارة التربية والتعليم،لما كان لهذا الكتاب وجود ولا أثر.

كمال الدين حسين لم يقرر الكتاب على طلاب المدارس فقط،بل كتب له مقدمة أعرب فيها عن إعجابه الشديد بالكتاب،ومن غرائب ما نجده أن كثيرا من المواقع الإسلامية على شبكة الإنترنت التى تحتفى بالكتاب وتشيد به،لا تنسب الكتاب لنظمى لوقا وحده،بل تنسبه إلى نظمى لوقا وكمال الدين حسين معا،وكأنهما قاما بتأليفه.

يقول كمال الدين حسين فى مقدمته:«ما الإسلام ..وما المسيحية ..وما الموسوية الحقة؟هل هى إلا أديان سماوية تنزلت على البشر فى مراحل مختلفة من حياتهم ليستشرفوا إلى المثل العليا ويستمسكوا بالخلق والفضيلة ويتعاونوا على البر والتقوى ويرتبطوا إلى الله الخالق القادر ارتباط الحب والرجاء والخشية،فيعيشوا على الأرض إخوة متحابين،يجمعهم على الفضائل الإنسانية إيمان مشترك بالله الواحد الذى خلقهم وإليه مصيرهم جميعا فى يوم لا ريب فيه».

ويصف حسين هذا الإيمان بأنه إيمان بالله الواحد،وتطلع إلى المثل العليا فى التعايش الإنسانى واستمساك بالخلق والفضيلة فى السلوك الفردى والاجتماعى، وأخوة إنسانية جامعة تحصن البشر ضد الأثرة والاستعلاء والبغى وتربط بعضهم إلى بعض برباط الحب والتعاون،ورجاء مشترك إلى الله أن يشملهم يوم يصيرون إليه بالرحمة والرضوان.

يجعل كمال الدين حسين من الأديان كلها دينا واحدا مشتركا،ويشير إلى أن كتاب نظمى لوقا يعلى من شأن المبادئ العامة فى هذا الدين المشترك التى نستحضرها جميعا لتعيننا فى كل صلاة نصليها وفى كل صيام نرتفع به فوق مستوى شهواتنا وفى كل زكاة نؤديها لنؤكد الأخوة الإنسانية بين بعضنا البعض وفى كل رحلة حج نرحلها من قريب أو بعيد لنصل إلى رحم الإنسانية المؤمنة بالله،هى مبادئ عامة لا يختلف فى الإيمان بها ذو دين عن ذى دين غيره،على تعدد الأسماء والصفات والبقاع والمجتمعات وما يستتبع تعددها من اختلاف فى بعض الموازين أو فى بعض المسائل.

لقد ألهم نظمى لوقا كمال الدين حسين فكرة عظيمة وهى أن الأديان كلها دين واحد يقول عنه:«دعوة واحدة تنزلت من إله واحد لعالم واحد تعاقبت أجياله على نسب مشترك من عهد آدم وحواء،وتعاقبت أنبياؤه برسالات ربهم إلى جيل بعد جيل من هؤلاء الأجيال ليكونوا تعبيرا متطورا لمعنى تلك الدعوة يتلاءم مع تطور هؤلاء الأجيال من غير نقص فيها ولا زيادة؛ ولأنها دعوة أزلية أبدية خلق الله تعالى الخلق إلى أن يجمعهم فى ساحة رحمته وعدله».

ويحدد كمال الدين حسين الفكرة أكثر عندما يرى أن موسى وعيسى ومحمد هم أنبياء هذه الدعوة الواحدة الأزلية الأبدية،لا يختلف أحد منهم عن أحد فى مبدأ من مبادئها ولا غاية من غاياتها، وإن اختلفت الأزمان وتطورت الجماعات من عهد نبى

منهم إلى عهد نبى،فكان التعبير المتطور لمعنى تلك الدعوة على لسان كل نبى والغاية واحدة والإيمان واحد والإله واحد،معنى لم يفطن له كثير من الناس فى كثير من العصور.

يؤكد كمال الدين حسين أن هذا المعنى فطن له نظمى لوقا فأضاء مصباحا قوى الضوء خليقا بأن يهدى إلى طريق الرشاد،يقول:«كتاب عن محمد الرسالة والرسول..خطرت فكرته على قلب مسيحى يؤمن بالله ويؤمن بالعقل ويؤمن بالإنسانية،درس محمدا إنسانا ودرسه داعيا ومرشدا إلى هدى،ودرس دينه مرحلة من مراحل التطور الحضارى فى المجتمع الإنسانى ودرسه نبيا ورسولا،فآمن إيمان القلب والعقل جميعا بأنه نبى ورسول بقلب المؤمن وعقل الإنسان وفكر الباحث،درس نظمى لوقا حياة محمد بن عبد الله ثم أفرغ دراسته موجزة فى كتابه «محمد الرسالة والرسول» ليكون لبنة فى أساس بناء وحدة فكرية وروحية تجمع قومنا على إيمان مشترك بالله الواحد وبالفضيلة وبالمثل الإنسانية وبالقيم الروحية».

المعنى نفسه أكده المثقف الكبير فتحى رضوان الذى أرسل لنظمى لوقا خطابا يقول له فيه:«أرجو ألا يتبادر إلى ذهنك أن كتابك حفزنى على تحرير هذا الخطاب لأنك أدرت الحديث فيه عن نبى المسلمين وأنا مسلم وأنت من المسيحيين،فتأليف الكتب عن الإسلام من مسيحيين سبقك إليه كتاب كبار من مسيحيي أوروبا وأمريكا،ولم يروا فى ذلك حرجا،وإن كان فضلك أكبر من فضلهم جميعا،إذ أن ما تذرعت به من شجاعة الإقدام على هذا العمل الأدبى أكثر مما احتاجوا إليه بكثير،فاختلاف الظروف والبيئات والملابسات يجعل من عملك شيئًا أقرب إلى المغامرة والمجازفة بالصلات والصداقات والمصالح،لذلك فإنى أكتب هذا لأعلن إليك أن الطابع الإنسانى فى كتابك قد مس شغاف قلبى أكثر من أى شئ آخر فيه

على جماله كله،فقد جرى بأسلوب من يحب الناس ويحب الأخيار فيهم ويحب لهم أن يعيشوا متآخين صافية نفوسهم مشرقة بالود والتسامح قلوبهم».

أما الرسالة الأهم والأقوى فكانت من العالم الأزهرى الكبير أمين الخولى الذى قال فيها:«يشعر قارئ «محمد الرسالة والرسول» أن باستطاعته البشرية الترفع المحلق عن ورائاتها ورواسبها الصلبة من أفعال آلاف الأجيال واستهواءاتها العنيفة وضعفها المتهالك أمام هذا وأشباهه مما ينقلها ويحول دون كل استعلاء منها،وهى حال الكثرة الكاثرة بل حال الكل والجميع إلا قلة نادرة،لا يكاد يكون لها حكم،إننا جميعا بكل ضعف بشريتنا لا ندرك من صلة الأديان المختلفة إلا العداوة والبغضاء والحقد والسخط على حطب جهنم المخالفين لنا،وتلك هى الآفة التى صب بها أهل الأديان على الحياة فى كل عصور التاريخ شواظا من نار فى محارق ومذابح ومعارك المذهب النقى والعقيدة السليمة على الملاحدة الهراطقة المبتعدين».

إلى هذا الدرجة استوعب هؤلاء الناس ما كان يريده نظمى لوقا،إنه لم يكن ينصر دينا على دين آخر،ولم يكن يشهد بأحقية أحد بأن يدعى امتلاكه للسماء وحده،لكنه قال : أن الأديان كلها من إله واحد،فلماذا الفرقة،وهو تحديدا ما جلعنى أعيد مرة أخرى نشر ما كتبه نظمى لوقا ليس فى كتابه «محمد الرسالة والرسول» فقد أعددت دراسة بالفعل عن الكتاب ونشرت نصه كاملا فى العام ٢٠٠٧،لكننى سأنشر بقية إسلامياته ،ليتأكد الجميع أن الدين واحد والإله واحد.

لقد اعتقد البعض زورا وبهتانا أن إعادة نشر ما كتبه نظمى لوقا فى الإسلاميات تحديدا نوعا من الفتنة وشق الصف بين المسلمين والمسيحيين فى مصر(وهو الصف المشقوق أصلا)،هؤلاء جميعا أقول لهم: أن يمتنعوا ...لأننى أكتب لمن يريد أن يفهم .. ولا أكتب لتجار الأديان،وليس علينا كما يقولون ألا يفهم البقر.